الفنون وأثرها فى نظر المجتمع[1]

للأستاذ محمود محمد صادق

سادتى :

تعنى وزارة الشؤون الاجتماعية بكل نواحى الإصلاح الاجتماعى . وفى مقدمتها : العناية بوسائل النهضة الروحية .

و إنى لمحدثكم الليله عن وسيلة من كبريات هذه الوسائل وأفعلها . ألا وهى الانتفاع بالفنون فى ترقية المجتمع — ترقية ذوقه وشعوره وعاطفته وتقوية الروح المعنوى فيه .

يخيل الى كثير من غلاة المادين فى هذا العصر . أن الفنون هى صناعة من لا عمل له ، أو هى تكأة العاجز وحيلة المتخلف وراء الصفوف — هؤلاء الماديون لا ينظرون الى الحياة بالعين النزيهة المجردة . لأن عيونهم لا تستمد حاسة أبصارها إلا من أعماق بطونهم وجيوبهم .

أما الفنانون . أيها السادة — فيستعدون حاسة الأبصار من أعماق أرواحهم وقلوبهم وضمائرهم — يريد الماديين أن يتهالك الناس على الاتجار والمغامرة بكل شىء فى سبيل أى شىء من عرض الحياة الزائل وشهوات الدنيا الفانية — أما الفنانون فيريدون أن يعيش الناس أيضا بأرواحهم وعواطفهم من أجل المثل العليا فى حياة تسودها الهناءة والبساطة والرحمة المتبادلة — الماديون عاشوا ينفثون سموم الأنانية والجشع والشراهة وحب الذات فأورثوا المجتمع البشرى كل ما يعانيه اليوم من رذائل وشرور . كذب ونفاق وغدر وقسوة وحروب دامية ناشبة لا بين الأمم والطبقات وحدها ، بل بين أفراد الأسرة الواحدة ، بل بين العشير والعشير والصاحب والخدين — طغت الأنانية فأصبح كل فرد يقول أنا وحدى . فأظلمت الحياة إذ لا يمكن أن يهنأ الانسان وحده بنفسه . لأنه اجتماعى بالطبع . لاغنى له عن صديق وحبيب وأنيس وعشير . وهؤلاء ان تجمعهم أبدا جامعة تشوبها الأنانية وحب الذات . انما تجمعهم المحبة المتبادلة والتضحية وإنكار الذات — لذا أصبحت حياة الفرد جحيما من العذاب . عذاب القلق والوحشة والأرق النفسانى . لم يعد يشغله المجتمع بملايينه وقصوره وحدائقه ومغانيه ومباهجه . لأنه أصبح فى شغل عن هذا كله بأنه مهدد فى كل لحظة وفى كل آن . من كل شىء وفى كل شىء — ذلك أن المحبة قد فقدت والعاطفة قد قتلت والرحمة قد نزعت . فلا تعاطف بين الناس ولا إخلاص ولا بر ولا وفاء — فهل تطمح البشرية يوما أن ترى جحيما فى الدنيا أشبه بجحيم الآخرة من هذه الحياة التى نحياها ؟

(١) أذيعت فى سلسلة الإذاعات الثقافية للوزارة من محطة الإذاعة المصرية .

ها هى ذى الحروب مشتعلة — ها هى ذى القلوب مستعرة — ها هى ذى الأحقاد متفجرة — ها هو ذا الأخ يأكل لحم أخيه حيا وميتا — ها هى ذى الحياة تتآكل وتتفانى — ها هو ذا العويل الصاخب والعويل الصامت — عويل الأفواه وعويل القلوب — ها هى ذى الدموع المتحدرة والدموع المتحجرة — ها هى ذى العيون الزائغة والأبصار الحائرة — ها هى البشرية قد فشلت فى كل شىء ويئست من كل شىء وحارت حيرتها الكبرى .

فهل أغنتها مدنية المادة وحدها ؟ هل أغناها التزاحم على الثراء والمظاهر وامتلاء البطون وحشد الجيوب ؟ كل هذا لم يغنها فتيلا بل عاد عليها وبالا ونقمة — ذلك أنها تهالكت وراء المادة الفانية فارت فى طريق الفناء محفوفة بالشقاء — وأنها جانبت طريق الحياة الروحية الباقية فلم يكتب لها بقاء ولا هناء .

أما الفنانون أيها السادة فلم يكونوا يوما أعداء المدنية . بل هم دعاة المدنية الصحيحة — المدنية التى تعتمد على الجمال الروحى والتقدم الخلقى والثراء العاطفى — يريد الفنانون أن يمثل الناس بحياة الطير فى الأوكار لا بحياة الوحوش فى الأدغال — فالطير لا يعدم قوته ولا وكره ذلك أنه قانع بقوت يومه وبساطة وكره . يقضى بقية يومه متنقلا بين مفاتن الطبيعة ، شاديا بالجمال ، هاتفا بنعيم القدرة — بينما تعيش الوحوش ثائرة غاضبة مفترسة ناهشة — تقتل حبا فى القتل . وتفتك التذاذا بالفتك ، مدفوعة بدافع الأنانية وغريزة الشراهة والجشع .

يريد الفنانون أن يحيا الناس حياة الطير — ذلك أن هؤلاء الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصورين ومن إليهم من الموهوبين والملهمين . إنما هم دعاة الحياة الروحية الخالدة — فطرهم الله قصدا . واحتفظت بهم الطبيعة عمدا ، ليحدوا من شهوات النفوس والأجسام — ليرقوا بالبشرية الى المستوى الروحانى الخليق بها كلما انحدرت بها المادية الى حضيض الحيوانية والبهيمية المطلقة — وليكونوا صلة الوصل بين الحياة التى نحياها والحياة التى تنتظرنا فى العالم الثانى — وأخيرا ليصلوا الحلقة المفقودة بين البشر والملائكة — ذلك أن الفنون إنما تدعو الى ارهاف الحس والشعور وتوليد العاطفة والسمو بالحواس إلى مرتبة الكمال ومستوى المثالية . هى تدعو الى تفتيح الأعين على جمال صنع الخالق وتمديد البصيرة قبل البصر الى ما وراء الخيال والتصور تستلهم ، وتستوحى خفايا المشاعر وخلجات القلوب — وفى هذا كله اعداد للنفس البشرية لتلقى الرسائل العلوية أساسا للتعاليم الوضعية — على حين أن المادة تطمس معالم الروح وتسخر العقل لعبودية الجسم فيفتن فى إرضائه عن طريق الشهوات والملاذ مستبيحا الحرمات والفضائل ، ممهدا لانتشار الآفات والرذائل .

انظر الى ما يقدمه الفنانون والملهمون إلى هذا المجتمع البشرى — فكم فى أشعارهم وصورهم وألحانهم ومسرحياتهم من استدرار للعطف على البؤساء والضعفاء ، وحض على

النزاهة والشرف والشجاعة والاقدام ، وكشف عن جمال الطبيعة وجمال النفس ، ودعوة إلى التضحية وإنكار الذات ، ودعاية لمبادئ الانسانية فى أطهر صورها وأعلى مثلها ، ومحاربة لرذائل المجتمع وعلله وآفاته — هذا بعض ما يقدمه هؤلاء الفنانون للمجتمع البشرى وهو فى الواقع خلاصة ما دعا إليه الرسل والأنبياء ، وعصارة ما يدعو إليه المصلحون والمرشدون والمشرعون والمخلصون من زعماء الأمم — ولا فارق بين الدعوتين — إلا أن الفنان يقدم تعاليمه هينة مستساغة مشوقة مرغبة — يقدمها تارة فى إطار وتارة أخرى فى باقة من الأزهار — بعد أن باعد بينها و بين جفاف الدرس أو ملالة النصح أو صرامة الأمر والنهى .

من هذا نتبين مبلغ ما فى الفنون من عون لكل داعية اجتماعى أو مصلح قومى — فالتاريخ هو التاريخ — و ياطول ماحدثنا — حدثنا عن بدء نهضتنا الدينية وما كان من عطف نبينا الكريم على حسان شاعره — وعن بدء نهضتنا المدنية والسياسية فى العراق والشام والأندلس وما كان للشعر والموسيقى والعمارة من أثر بالغ فى ازدهار هذه النهضة ، وكيف دالت تلك الدول وزالت تلك الحضارات ولاتزال أعلامها خفاقة إلى اليوم فى بقايا أشعارها وآثارها .

كذلك حدثنا التاريخ عن نهضة الغرب ، وكيف بدأ عصر الأحياء ببدء نهضة الفنون والآداب حتى ازدهرت فازدهر الغرب معها . وكيف استمرت نهضة الغرب مزدهرة حتى طغت موجة المادية فاكتسحت مكانة الفنون وزحزحتها من مرتبتها الأولى الى المرتبة الثانية أو الثالثة أو الأخيرة — فكان فى حلول المادية فى المكان الأول ، بكل ما فيها من مغريات ومظاهر خلابة جوفاء — السبب كل السبب فيما نشهده اليوم من هبوط أسعار الدم البشرى وارتفاع أسهم الحديد والنار .

أما فى مصر . فانى أجتزئ بالاشارة العابرة الى عصرها الحديث ، فقد أتى عليها حين كان للفنون فيها مقام ملحوظ — بدأ هذا الحين بعهد اسماعيل فأقيمت المتاحف والتماثيل ، وشيدت دار الأوبرا واستقدمت الفرق التمثيلية وشهدت مصر لأول عهدها بعض المسرحيات الخالدة ، كما انطلقت يد الجمال والفن فى تنسيق أشهر حدائقها المعروفة ، كما امتدت يد التشجيع من القائمين بالأمر الى كل فنان مصرى فنال الشعراء والموسيقيون حظوتهم ، ولم تلبث مصر أن شهدت من أبنائها أمثال صبرى والبارودى وشوقى وعبده وعثمان ومن إليهم من أعلام أبنائها الخالدين شعراء وموسيقين — هؤلاء جميعا كانوا أقرب الناس الى أولى الأمر . لا إلى سمعهم وأبصارهم فحسب ، بل الى قلوبهم أيضا ، فكان فى هذا التقريب وتلك الحظوة ما كان من نهضة فنية أدبية موسيقية رفعت مكانة البلاد ولا تزال تخرا لها إلى اليوم .

سادتى ،

ليت هذه النهضة ووليت بالعطف والتشجيع والتقدير — إذن لتضاعفت ولكان لنا من ذخرها اليوم أكبر معين على نهضتنا القومية — ولكن الذى حدث أن موجة المادية والأنانية التى طغت على الغرب فزحزحت مكانة الفنون فيه قد سرى رشاشها الى هذه البلاد على أثر الحرب العظمى الماضية ، فدخل التكالب والاصطناع والاتجار والادعاء فى كل شىء حتى فى الفنون — والفنون كما علمتم أيها السادة أبعد الأشياء عن هذا الاصطناع وذلك الاتجار . لأنه يطعنها فى الصميم . ولأن رسالتها أبد الدهر البراءة والنزاهة وصفاء الجوهر — لم يقف مصاب الفنون عند هذا الحد فقد شغل أولو الأمر عنها بما خلفته تلك الحرب الدروس من مشاغل سياسية وأحداث داخلية فعاشت يتيمة تنعى حماتها الأول . تعانى ما تعانيه من فقد التشجيع وصدق التعضيد فخفت صوت رسالتها وداخلها الضعف والوهن حتى استطاع المتربصون لها أن يتاجروا بها اتجارا ويستغلوها استغلالا لا رحمة فيه ولا هوادة .

سادتى :

ان الفنان الموهوب الملهم لأقوى الناس على أداء رسالته الروحية . ولكنه بقدر قوته هذه أكثر الناس ترفعا عن النزول الى معترك التزاحم المادى — وهذا هو سر ما يرمى به من ضعف — لهذا كان الفنان فى جميع العصور أمانة ووديعة فى يد الأمة والقائمين بالأمر — يلق منهما كل حماية وعطف — لأنه قد خلق فى شغل عن الدنيا برسالة فنه التى تستغرق كل حواسه ومشاعره — ولأنه أيضا لا يعيش إلا لغيره — أما وأن يترك للكدح والكفاح وراء مطالب الحياة فى هذا المعترك المادى الزاخر بدعوى حرية التزاحم و بقاء الأصلح فنقوا أيها السادة ، أن لا حياة للطير بين الوحوش ولا للرسالة العلوية فى حضيض الضعة والانحطاط المادى والخلقى ، هذا الذى أقول إن يك جديدا على بعض آذان هذا الجيل . فقد كان مألوف الأسماع فى الأجيال الماضية والعصور الزاهرة ، فكم تولت الشعوب والحكومات رعاية الفنون وحماية الفنانين وحاطتهما بسياج قوى لا يختازه العوز والافتقار ولا يتخطاه الأدعياء والاغرار . فكان لهذه الشعوب وتلك الحكومات من وراء هذه الفنون وهؤلاء الفنانين آثار وذخيرة من الحضارة الصحيحة التى لا تزال تفخر أجيالهم المتعاقبة .

محمود محمد صادق

مدير الدعاية والارشاد الاجتماعى